السرية بين الدعوة والفكرة

تلجأ بعض الجماعات الإسلامية إلى السرية في أولى مراحل عملها اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، الذي عاشت الدعوة في أول أمرها في زمانه سنوات من السرية في مكة يراها بعضهم ثلاثاً.. وتتبلور فكرة دار الأرقم ابن أبي الأرقم في شكل نظرية جامعة منضبطة.. وترى هذه الجماعات أن البداية السرية لأي مشروع إسلامي أمر لا يتطلبه الواقع فقط بل واتباع خطوات النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة أيضاً.

وهذا الطرح خاطئ رغم النية الحسنة التي قد تكتنفه، ويأتي خطؤه الفادح من كونه يلغي أربعة عشر قرناً من الانتشار للدعوة فيما بعد مرحلتها السرية الأولى، وصل فيها الإسلام إلى أقاصي الأرض، زيادة على أنه كذلك مخالف لطبيعة النمو التي تجعل الانتقال من الأصغر إلى الأكبر، ومن الأضيق إلى الأوسع.

والدعوة الإسلامية هي دعوة أمة كاملة، لا دعوة جماعة، وهذه الأمة في مجموعها لها رصيد دعوي هائل ممتد مكاناً وزمانا، جهرة لا سراً.. فإذا جاءت جماعة ما وأرادت أن تعيد الأمور إلى مبادئها، فإنها بذلك لا تفعل أكثر من أنْ تتدرج نازلة إلى الأسفل بدل الصعود إلى أعلى، وتكون بذلك قد ألقت جهود الملايين من جنود الإسلام دعاة، وأئمة، وفاتحين، وعلماء، سعوا طوال قرون ماضية في أصقاع الأرض ينشرون هذا الدين، وبهذا فإن هذه الجماعة تقطع صلتها بهؤلاء.. وإلا فكيف تكون جماعة ما متصلة بأسلافها في الوقت الذي تدعي فيه أنها

يجب أن تبدأ عملها سرياً، مع أن هؤلاء الأسلاف كانوا يجهرون بالدعوة..؟!!

فهل هو الحور بعد الكور؟!!

وفي عقد من العقود تظهر جماعات عدة متتالية بين سابق ولاحق، وكل جماعة تأتي تعيد الأمور إلى مبادئها مدعية أنها ستبدأ الدعوة من دار الأرقم، وطوال أربعة عشر قرناً لم تصل الدعوة إلى مرحلة بدر، ولا إلى إعادة تجسيد نموذج المدينة، وهنا يجب مصارحة هذه الجماعات بالحقيقة وهي أن الحديث عن الدعوة بدل الفكرة أمر فيه خلط كبير وتجنٍّ مشين، لأن هذا الدين الذي تريد هذه الجماعات أن تجعله سرياً في مرحلته الأولى ليس سوى فكرة نهضوية، وليس دعوة، بدليل أن الكثير من هذه الأفكار تتعامل مع أناس مسلمين سلفاً تسعى إلى إقناعهم بفكرتها، أو تجنيدهم لها، وهنا يظهر أن هذه الجماعات لا تقدم الدعوة الإسلامية التي كان يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تقدم فكرة ومشروعاً سياسياً، أو دعوياً، أو اجتماعياً، أو حتى صوفياً.

إن بعض الجماعات الصوفية مثلاً قد تظهر في مجتمع مسلم وتبدأ في استقطاب أفراده، إلى حلق أذكارها ونظمهم في خانتها، وقد تلجأ في أول الأمر خوفاً مما قد يواجهها، إلى خيار السرية، وتقنع أفرادها أنهم في مرحلة الدعوة السرية، وأنهم في دار الأرقم، وتذهب بعيداً في إسقاطات أخرى خاصة بتلك المرحلة.

إن الذي يفعل هذا يضرب ولا شك سبق الوجود الديني والعقدي، فكيف يأتي شخص إلى جماعة مسلمة منذ عقود ليعيدها إلى المرحلة السرية في الدعوة؟!.

هل معنى ذلك أن يشطب كل هذه العقود التي سبقت دعوته (فكرته)، والتي كانت فيها هذه الجماعة مسلمة؟!!

إن عمليات الشطب المتواصلة في الأمة، والتي تعاد فيها الأمور في كل مرة إلى الصفر، وإلى دار الأرقم، كانت سبباً بارزاً في جزء كبير من الأزمة التي تعانيها الأمة، ذلك لأنها تقتل عنصر التوارث في البناء، والذي يقتضي البدء مما وصل إليه الآخرون، وهذا العنصر مبدأ إسلامي يرتكز على قوله تعالى: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان» أما الهدم للسبق فإنه قائم على مبدأ: «كلما دخلت أمة لعنت أختها».

إن الذي أسرّ به النبي صلى الله عليه وسلم، في دار الأرقم وفي سنوات الدعوة الأولى هو اليوم يملأ الكرة الأرضية التي لا تمر فيها دقيقة إلا والأذان مرتفع فيها بالتوحيد، فبأي شيء يريد أن يسرَّ المنظّرون المتأخرون للعمل الإسلامي؟ من هنا كانت السرية عند غير الذين يعتمدونها تثير الكثير من علامات الاستفهام، بل تعني خطورة يحملها المشروع المراد الإسرار به.

فمثلاً، حينما تلجأ جماعة إسلامية في مجتمع مسلم إلى إقامة دار الأرقم، فإن أول ما يثيره ذلك من التساؤلات هو:

لماذا؟!

لماذا هذه السرية؟

إن هذه السرية تعني أن هناك شيئاً متميزاً عما عند مجموع المجتمع تريد هذه الجماعات نشره، ولو كان الأمر أمر دعوة إسلامية، صلاة وصوم، ومحاربة شرك، وبدعة.. و.. ولما احتاج الأمر إلى سرية، لأن المجتمع كله يتبناه.

ويكبر التساؤل:

ما هو هذا الشيء المتميز؟

ليصير:

لو لم يكن هذا الشيء المتميز خطيراً لما أسرّوا به!!

من هنا تبدأ محاربة أصحاب هذه الفكرة واضطهادهم، وهذا هو السبب الذي جعل الجماعات ذات البرامج والأفكار السرية على مر القرون الماضية عرضة للفشل والنهايات المأساوية.

والعودة بالإسلام من الوضوح إلى هذه الخانة المظلمة التي تحيط بها التساؤلات الخطيرة أمر لا مبرر له البتة.. فما الذي يجعل الإنسان يتنازل عن الواسع إن كان خيراً ليقع في الضيق؟!! أو يتنازل عن الجهر والعلن ليرجع إلى السرية..؟

إن بعض الجماعات قد تتذرع بالواقع الضاغط الذي قد يلجئها إلى السرية.. وهنا لا يجب على هذه الجماعات أن تعتبر عملها هذا داخلاً في معنى السرية حسب ما هو موجود في السيرة النبوية الشريفة في أول الدعوة.. ذلك لأن إعطاء فكرة معينة صبغة «الدعوة الإسلامية» معناه كما قلنا التشويه المريع للحقائق، وفي ذلك ما فيه من المحاذير والأخطاء.